

الطريق إلى الالتحام بين الجيلين

* الدكتور/ يوسف محمد صديق

إن من دواعي السرور أن يرى المسلمون نبت الاسلام قد ظهر ، وأن رايات الصحوة الاسلامية قد رفرت في كل مكان ، تهتف .. الله أكبر الله أكبر .. الله أعلى وأجل والعودة للإسلام بكماله ونقائه وعدله .

ومن نافلة القول أن يقال : أن فرضية الدعوة إلى الله تحتم على أهل الخير والمعرفة والعلم أن يعرضوا تجارب الجيل القريب ، حية متحركة وسيرهم وتاريخهم الزكي العطر ، يعرض كل ذلك لجيل اليوم الصاعد ، ليتم الالتحام بين الجيلين ، ويبدأ جيل الدعوة الصاعد المندفع بحماس فائق من حيث وصل سلفه الواعي الرشيد ، فيرث جيل اليوم الأمانة بشمولها ونقائها ، مستفيدين ومتعطين من تجارب السابقين ومواقفهم وأصولهم وقواعدهم في الدعوة إلى الله ، إذ أن الحماس وحده لا يكفي المسألة ليست مسألة استعداد للموت والصدق في هذا الاستعداد ، وإنما المسألة هي لزوم السير في الدعوة إلى الله على النهج الصحيح ، فهو وحده الموصل إلى المراد وبلوغ الغاية على الوجه المطلوب ، فعلى الداعي أن لا يتأثر بالعواطف والمقاصد الطيبة والحماس لخدمة الاسلام عند تَعَيُّن الوسيلة ، وليدع النظر السديد يُعَيِّنُ الوسائل والأساليب وأن يُرشد الحماس والرغبة تجاه تحقيق وتنفيذ الاسلوب الصحيح والوسيلة الصحيحة بعد تقريرهما ، لا أن يوجه ذلك للتشكيك في

* يشغل حالياً وظيفة مدرس في كلية الشريعة والدراسات الاسلامية - جامعة الكويت حصل على شهادة الدكتوراه سنة ١٩٨١م من جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض ، له جملة من المؤلفات أهمها :
- بحوث في العقيدة عن الأئمة الأربعة .

الاسلوب الصحيح ، والتجديف بعيداً عن الوسائل الصحيحة وحفر الخنادق لتعميق الخلاف والجدل العقيم .

ولما كانت هناك بعض المحن والزلات في الطريق ، رأيت أن أكتب أسطراً عن المزالق الخطيرة التي أحدثت تساؤلات حولها أدت إلى إضعاف الصلة بين فكر الجيلين ، راجياً من الله تعالى أن يكون بحثي موفقاً وخالصاً لوجه الله ، لئلا تسد ثغرة وجهه^(١) قضية باتت تشغل بال الغيورين على هذا الجيل ، وما يدبر له من مكائد الأعداء ومكرهم لإبادته .

صمود الجيل السابق كان له أعظم الأثر في تجنيد جيل اليوم ووجوده : من ما تعرض له جيل الأُمس القريب من تعذيب وتشريد وأيذاء وبطش وسحق كان له أعظم الأثر في تجنيد أفراد جيل اليوم وتثبيته على طريق الدعوة الشاق المتين ، وكان لذلك الصمود بالغ الأثر في تهيئة هذا الجيل لحمل راية الدعوة إلى الله تعالى . ولا يغالط ويمارى في هذا إلا مكابر متعامٍ عن الحقائق غامط للناس جميلهم وحسن صنيعهم . أين التكريس الذي سهر الكافر المستعمر لوضعه يمنع نور الله أن يصل إلى جيل اليوم ؟ أين المناهج التي خطَّها تضلل وتطفئ نور الطريق ؟ أين الكثير الذي لا يعد ولا يحصى ، الذي وضع للتشويش والإيذاء العقدي والفكري ؟ لقد هوى وسقط أمام مواقف الجيل السابق ، هدمت أصواتهم القوية كل حصن ، ووقف تاريخهم المجيد شاخماً بأنفه إلى السماء ، يحطم كل صرح للضلال والاضلال ، أولئك الذين صبرهم الله وثبتهم واتخذ منهم شهداء ، أولئك أوفياء العهد أقوياء العزائم الذين لم تلن لهم قناة وما بدلوا ولم يماروا رحمهم الله .

حد الالتحام بين الجيلين ومقصوده ومعناه :

معناه هو الارتباط والتلاقي والتوافق في النهج والقول والعمل ، يقال :

(١) وجاه أي تجاه ومواجهه وفي حديث صالح بن خوات في الصحيحين في صلاة الخوف «أن طائفة صلت معه وطائفة وجاه العدو» .

لاحمت الشيء بالشيء ، إذا الصقته به . وحبل ملاحم مشدود الفتل . والحـم
الناسج الثوب ، ضم سداه إلى لحمته . وفي المثل الحم ما أسديت أي تمم ما ابديته
من الإحسان .^(١)

ومقصودي أن التجارب وفقه الدعوة الذي مرت به تلك الأجيال السابقة يجب
أن نلتحم ونلتصق به ، حتى نصير تلك التجارب محور استفادتنا ، في حل المعضلات
واستبانة الطريق .

التجربة خير معلم للإنسان وتجربة الدعاة السابقين خير معلم لداعية اليوم ،
ولا شك أن لكل داعية تجارب كثيرة في مجال الدعوة هي حصيلة عمله المباشر مع
الناس وأصنافهم ، وتعتبر السيرة في ذلك لمثابة الترجمة العملية لأصول وقواعد
الدعوة . والتطبيق قد يظهر له وجه خطيئة فيتجنبه في المستقبل ، وقد يكون الثمن
غالياً نتيجة ذلك التطبيق ولكن ما يتعلمه من التجارب أغلى من الثمن المدفوع إذ
انتفع من التجارب حقاً . وتاريخ العلوم التجريبية مليء وخير شاهد على ما نقول ،
فكم دفع مكتشفوا الأدوية من أثمان باهظة أثناء اجراء تجاربهم أدت ببعضهم إلى
الموت أو فقدان بعض الحواس الهامة ، لكن ما أفادته الانسانية من تجاربهم كان أغلى
وأنفس مما فقدوه .

والمأمول من المؤمنين بل من الدعاة أكبر وفي الحديث : « لا يلدغ المؤمن من
جحر مرتين »^(٢) روى برفع الغين ، ومعناه المؤمن المتيقظ الحازم لا يؤق من قبل
الغفلة فيُخدع مرة بعد أخرى وروى الحديث بكسرها ومعناه أي ليكن فطناً كيساً لئلا
يقع في مكروه بعد وقوعه فيه مرة قبلها ، وفيه تنبيه المؤمن عل عدم عوده لمحل حصول
مَضَرَّة سبقت له فيه وهذا الحديث فيه قصة وهي ما أخرجه العسكري أن هشام بن
عبد الملك قضى عن الزهري سبعة آلاف دينار ، وقال : لا تعد لمثلها . فقال

(١) الصحاح للجوهري ٢٢٧١٥ ، لسان الرعب لابن منظور المصري مادة : حَمَ .

(٢) البخارى ١٠٣/٧ باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، ومسلم - الزهد حيث ٦٣ وأبو داود في الادب باب ٢٩

وابن ماجة في الفتن ١٣١٨/٢ وسند أحمد ١١٥/٢ و٣٧٩

الزهري : يا أمير المؤمنين حدثني سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : . . . فذكر الحديث قال العسكري وكذا ابن اسحاق : هذا قاله المصطفى صلى الله عليه وسلم لأبي عزة الجمحي الشاعر ، وكان يهجو ويحرض عليه الكفار ، وكان قد أصابه مرض فتجنبه الناس فضرب بطنه بشفرة فمارت عن جوفه وشقت جلده ، فخلص من البرص ، فأسر يوم بدر فسأل المصطفى صلى الله عليه وسلم أن يمن عليه ، فعاهده أن لا يحرض عليه ، وأطلقه ، ثم حضر أحداً مع الكفار . فلما خرج المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى حمراء الأسد أسره ، فسأله أن يمن عليه فقال صلى الله عليه وسلم : « لا تتحدث بالابطح وتقتل سبائك وتقول خدعت محمداً مرتين » . . ثم ذكر الحديث وأمر به فقتل فصار الحديث مثلاً ولم يُسمع ذلك قبل المصطفى صلى الله عليه وسلم .

قال الطيبي : لما رأى المصطفى صلى الله عليه وسلم من نفسه الزكية الميل إلى الحلم والعفو عنه جرد منها مؤمناً كاملاً حازماً ذا شهامة ونهاه عن ذلك تأنيباً ، يعني ليس من شيمة المؤمن الحازم الذي يغضب لله ويذب عن دينه أن ينخدع من مثل هذا الغدار المتمرد مرة بعد أخرى فانتبه عن حديث الحلم وأمضي لشأنك في الانتقام والانتصار من عدو الله فإن المقام مقام غضب لله يأبى التحلم والعفو . وأنشد النابغة في هذا المعنى .

ولا خير في حلم إذا لم تكن له

بوادر تحمي صفوه أن يكدر^(١)

المؤمن كيس مستفيد والغفلة وحسن النية لا تفيد من غير توجيه وترشيد ، ولا يُعذر جيل اليوم بالغفلة عن تجارب الجيل السابق أو بغيرها فيقع في الأخطاء وينخدع فتتنكس هذه الصحوه المباركة ونعود للبناء من جديد . والقرآن يقص علينا قصة يعقوب مع أخوه يوسف ﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمْسَكُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾^(٢)

(٢) يوسف آية ٦٤

هذا هو مقصودي من التحام الجيلين وليس من مقصودي أن أتعرض لأصول وقواعد الدعوة عند سلفنا الصالح لأن ذلك ولله الحمد موجود ومتيسر وقد كتبوه أو سطره في التاريخ وسجله بدمائهم وليس هذا موطنه .

وهدى السلف الصالح أن التجارب والحكمة ضالة المؤمن فإن أصاب أحدهم منها شيئاً حواه وضم إليه غيره لأنه أحق به ولا يضرهم من أي وعاء خرجت تلك التجربة أو الحكمة . روى العسكري عن مبارك ابن فضالة قال : خطب الحجاج فقال : « إن الله أمرنا بطلب الآخرة وكفانا مؤنة الدنيا ، فليته كفانا مؤنة الآخرة وأمرنا بطلب الدنيا » فسمع الحسن البصري هذه المقالة الحسنة ، فقال رضي الله عنه :- « ضالة مؤمن عند فاسق فليأخذها »^(١) فلم يمنعه ظلم الحجاج من الاستفادة من التجربة والحكمة .

وعن يوسف بن اسباط قال : كنت مع سفيان الثوري وخازم بن خزيمة يخطب ، فقال في خطبته : « إن يوماً أسكر الكبار وأشاب الصغار ليوم عسير شره مُستطير . » فقال سفيان : « حكمة من جوف خرب . »^(٢) ثم أخرج سريحة يعني ألواحاً فكتبها .^(٣)

هؤلاء سادات التابعين لا يمنعه مانع من الاستفادة من مناهج وتجارب وحكم غيرهم وإن كانوا يخالفونهم المنهج ، فما بال الشباب يعرض عن تجارب الجيل السابق وهم الأخيار الذين عايشوا ما نجده ونحس من مرارة عنت الطغاة أعداء الله ، بقصد القضاء على الدعوة ووأدها أو لفتنا واشغالنا بشتى الأسباب المتنوعة الخفية كل ذلك قد حصل ووقع للجيل السابق لنا في طريق الدعوة المعاصرة ، وسوف يقع ويعاد ويتكرر ويكرس أكثر وأكثر إذ أن دافعه موجود إلا وهو الخوف على العروش وكراسي الحكم والسلطان أن يعلوها الحق فتزهق « بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ »^(٤) .

(١) (٣) كشف الخفاء ٣٦٤

(٢) يقصد انها خرجت من عند غير أهلها .

(٤) الانبياء ١٨

وعدم الاستفادة من تجارب الجيل السابق ضياع لجهود وتجارب كثيرة تهدر على حساب المسلمين الذين ضحوا من أجلها ، كما أن الاضرار بالكلية سفة وطيش يؤدي غالباً إلى حقوق الأذى بالعالمين في الحقل الاسلامي وعدم بلوغ الغاية وإن ظن الظان أنه قارب بلوغ الغاية حتى لوصلها فعلاً فإنه سرعان ما يدفع عنها ويرمي به . ومحاولة الاتيان بالجديد من التجارب بناء على غير أساس ، أو بناء بمواد تحت التجربة قد تكون صالحة وقد تكون غير صالحة ، فالبناء في الاحتمالين بناء على غير أسس سليمة .

لا ريب أن ترك وتجارب جيل الدعوة السابق لنا أمر مخطط له وله عوامل وأسباب أدت ببعض أفراد الصحوة الاسلامية لهذا المزلق الخطير .

وقفات مع بعض العوامل التي تحول بين الإلتحام بين الجيلين

١ - الاختلاف الفقهي وأثره

لقد عمل الكافر المستعمر قديماً على قطع الصلة بين جيلي الدعوة إلى الله بالارجاف والتشكيك ، وكان باب الاختلاف الفقهي أوسع الأبواب لديه في مجال نقد الجيل السابق لذا أبرز هذه النعرة على الساحة ليتقاتل الجيل الصاعد على الخلاف الفقهي ، وقد امتطى بعض اخواننا من الدعاة ذلك بقصد أو بغفلة ، فعملوا على تخفيف الينابيع الفكرية الصافية والتي تغذي الحقل الاسلامي .

وقد استبان ذلك جلياً في امتناع كثير من أتباعهم الشبيبية وحديثي العهد وهم مما يرجى خيرهم ، امتنعوا عن مطالعة كتابات سادات المفكرين وبعض الدعاة الصالحين ، بحجة المسائل الجزئة وقد تعدى البعض إلى أكثر من ذلك ، والذي يخشى على جيل الدعوة الصالح أن تفتعل له فجوات وتحفر الخنادق وتحدث جفوة بين الجيلين ، السابق في فكره والصاعد في ثقافته وأفقه ، فينحدر منحني المد الاسلامي ويتردى في الهاوي .

لا تسلكن طريقاً لست تعرفها
بلا دليل فتهوي في مهاويها

الاختلاف الفقهي وضع طبيعي محتم :

لما اتسعت الفتوحات الاسلامية ألقي السادة الفقهاء في البيئات المختلفة واقعاً حملهم على أن يستجيبوا لحاجته الخاصة ومشكلاته المستجدة وحاجته المعينة ، فأعملوا عمومات القرآن والسنة والاقيسة ومقاصد الشريعة الواحدة في إيجاد الفتوى الصائبة نحو تفاريع الحياة وتفاصيلها . ولما التمس فقهاء كل بلد التعبير عن تلك المقاصد من خلال البيئات المختلفة جغرافياً واجتماعياً حدث الخلاف الفقهي وتعددت الرؤى وبرزت المدارس والمذاهب الفقهية ، وكان ذلك وضعاً طبيعياً محتماً ، وكان لابد من السماح بالتعدد في النظر والاقتباس والاستنباط حتى يتسنى للمجتهد والفقهاء أن يفيد من حوله في الجديد الحادث في أمورهم التعبدية ، ولسعة نظر أهل تلك الحقبة التاريخية وعمق فقههم ، رفضوا حمل الناس أجمعين على مذهب واحد ورأوا أن ذلك ضرب من الحرج والتعسف ، وأسوق أقوال الحكماء والعلماء في ذلك .

أقوال السلف ان الاختلاف في الفروع غير مذموم :

أولاً : في سنن الدارمي عن حميد قلت لعمر بن عبد العزيز : لو جمعت الناس على شيء واحد ؟ فقال : ما يسرنى أنهم لم يختلفوا ، قال : ثم كتب في الآفاق وإلى الأمصار ليقض كل قوم بما اجتمع عليه فقهاؤهم .^(١)

ثانياً : أخرج الخطيب في رواة مالك عن اسماعيل بن مجالد قال : قال هارون الرشيد لمالك بن أنس : يا أبا عبد الله نكتب هذه الكتب - يعني مؤلفات

(١) الدارمي - المقدمة - باب اختلاف الفقهاء - ١٢٢/١ ومسنده عن يزيد بن هارون عن حماد بن سلمة عن حميد قلت لعمر بن عبد العزيز .

للامام مالك - ونفرقها في آفاق الاسلام ، لنحمل عليها الأمة قال مالك : يا أمير المؤمنين ان اختلاف العلماء رحمة من الله تعالى كل يتبع ما صَحَّ عنده وكل على هدى وكل يريد الله تعالى^(١) .

ثالثا : قال الذهبي : وبين الأئمة اختلاف كثير في الفروع وبعض الأصول ولقليل منهم غلطات ومفردات منكزه ، وإنما أمرنا باتباع أكثرهم صواباً ، ونجزم بأن غرضهم ليس إلا اتباع الكتاب والسنة ، وكلما خالفوا فيه لقياس أو تأويل . وإذا رأيت فقيهاً خالف حديثاً أو رد حديثاً أو حرّف معناه فلا تبادر لتغليظه ، قال علي كرم الله وجهه : لمن قال له : أتظن أن طلحة والزبير كانا على باطل ؟ قال علي : يا هذا إنه ملبوس عليك ، إن الحق لا يعرف بالرجال ، أعرف الحق تعرف أهله .

وما زال الاختلاف بين الأئمة واقعاً في الفروع وبعض الأصول مع اتفاق الكل على تعظيم الباري جل جلاله ، وأنه ليس كمثله شيء وأن ما شرعه رسوله حق وإن كتابهم واحد ونبيهم واحد وقبلتهم واحدة .

ويجب علينا نعتقد أن الأئمة الأربعة والسفيانيين والاوزاعي وداودالظاهري واسحاق بن راهويه وسائر الأئمة على هدى ، ولا التفات لمن تكلم فيهم بما هم برئيون منه والصحيح وفقاً للجمهور أن المصيب في الفروع واحد ولله تعالى فيما حكم عليه اماره وإن المجتهد كلف بإصابته وإن المخطيء لا يأثم بل يؤجر ، فمن أصاب فله أجران ومن أخطأ فله أجر .

نعم إن قصر المجتهد أثم اتفاقاً ، وعلى غير المجتهد أن يقلد مذهباً معيناً ، ولا يجوز تقليد الصحابة وكذا التابعين كما قاله امام الحرمين وكل من لم يدون مذهبه ، فيمتنع تقليد غير الأربعة في القضاء والافتاء لأن المذاهب الأربعة انتشرت وتحررت حتى ظهر تقييد مطلقها وتخصيص عامها ، بخلاف غيرهم لانقراض اتباعهم^(٢) .

(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ١/١٩٢

(٢) فيض القدير ٣/٢٠٩

وقد نقل الامام الرازي اجماع المحققين على منع العوام من تقليد اعيان الصحابة وأكابرهم . ١ هـ .

قال المناوي رحمه الله : نعم يجوز لغير العامي من الفقهاء المقلدين تقليد غير الأربعة في العمل لنفسه ان علم نسبته لمن يجوز تقليده وجمع شروطه عنده لكن بشرط ألا يتتبع الرخص بأن يأخذ من كل مذهب الأهون بحيث تنحل رتبة التكليف من عنقه^(١) .

وقد أطال الفقهاء رحمهم الله في وضع الضوابط والشروط للانتقال من مذهب لآخر ، ومنعوه حيث تنحل به رتبة التكليف في المسألة كمن تزوج بلا صداق ولا ولي ولا شهود فإنه لم يقل به أحد وهو مخالف للإجماع والقواعد الكلية . ١ هـ

رابعاً : عن يحيى بن سعيد انه قال : أهل العلم أهل توسعة وما برح المفتون يختلفون فيحلل هذا ويحرم هذا فلا يعيب هذا على هذا^(٢) .

خامساً : أخرج البيهقي في المدخل عن القاسم بن محمد أو عمر بن عبد العزيز : لا يسرني أن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لم يختلفوا لأنهم لو لم يختلفوا لم تكن رخصة^(٣) .

سادساً : قال الخطابي^(٣) رحمه الله تعالى : الاختلاف في الدين ثلاثة أقسام الاول : اثبات الصانع ووحدانيته ، وانكاره كفر . الثاني : الاختلاف في صفاته ومشيتته وانكارهما بدعة . الثالث : في أحكام الفروع المحتملة وجوهاً فهذا جعله الله رحمة وكرامة للعلماء وهو المراد بحديث « اختلاف أمتي رحمة^(٤) » .

(١) (٢) (٣) فيض القدير ١/ ٢١٠ وكشف الخفاء ١/ ٥٦ .

(٤) رواه البيهقي في المدخل وفي رسالته الأشعرية ، والطبراني في الكبير والديلمي ونصر المقدس في الحجة مرفوعاً ، وعزاه العراقي لادم بن ابى اياس في كتاب العلم والحكم . قال السخاوي قرأت بخط شيخني يعني الحافظ بن حجر: أنه حديث مشهور على الألسنة . قال الحافظ العراقي سنده ضعيف . انظر اقوال علماء الحديث بتطويل في كشف الخفاء ١/ ٦٥ وفيض القدير بشرح الجامع للمناوي وقد اطال واجاد ١/ ٢٠٩ والمقاصد الحسنة ص ٢٦ والدرر المنتشرة ص ٨ واسنى المطال ص ٣٥ ، ٧٥ .

سابعاً : في العقائد لابن قدامه الحنبلي ان اختلاف الأئمة رحمة واتفاقهم حجة^(١) .

قال المناوي رحمه الله وقد اعترض على حديث « اختلاف أمتي رحمة » رجلان أحدهما ماجن والآخر مُلحد وهما اسحاق الموصلي وعمرو بن بحر الجاحظ وقال جميعاً : لو كان الاختلاف رحمة لكان الاتفاق عذاباً . قال النووي في شرح مسلم : ولا يلزم من كون الشيء رحمة أن ضده عذاباً ، ولا يلتزم هذا ويذكره إلا جاهل أو متجاهل ، وقد قال تعالى : ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِي جَعَلْتُ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾^(٢) فسمى الليل رحمة ولا يلزم من ذلك أن يكون النهار عذاباً . ولا شك أن الاصول ليست مناط خلاف والمخالف فيها منبوذ عند أهل السنة والجماعة ومستندهم قوله تعالى ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَفَرُوا وَأَخْلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾^(٣)

اعتراض البعض بظواهر القرآن ورد العلماء عليهم :

قال الحافظ المناوي رحمه الله تعالى : فإن قلت هذا كله لا يجمع نهي الله تعالى عن الاختلاف بقوله ﴿ وَأَعِصُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾^(٤) وقوله تعالى ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَفَرُوا وَأَخْلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾^(٥) .

قلت هذه دسيسة من بعض من في قلبه مرض ، وقد قام بأعباء الرد عليه جمع جم ، منهم ابن العربي وغيره بما منه : أنه سبحانه وتعالى إنما ذم كثرة الاختلاف على الرسل ، كما دل عليه الحديث (إنما أهلك من قبلك كثرة اختلافهم على

(١) ص ١١٧ وقال شارحه محمد صالح العثيمين : والاختلاف فيها غير مزوم حيث كان عن نية خالصة

(٢) القصص ٧٣

(٣) العمران ١٠٥

(٤) (٥) آل عمران ١٠٣ و ١٠٥

أنبيائهم) ^(١)

أما هذه الأمة فمعاذ الله أن يدخل فيها أحد من العلماء المختلفين لأن الله أوعد الذين اختلفوا بعذاب أليم ، والمعترض موافق على أن اختلاف هذه الأمة في الفروع مغفور لمن أخطأ منهم فتعين أن الآية فيمن اختلف على الأنبياء ^(٢) .

وقد يستدل من رمى جيل الدعوة السابق بالتقليد والجهالة وعدم الاجتهاد فعمل على إضعاف صلة جيل اليوم وقطع حبل الصلة بين الجيلين قد يستدل بقوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَفَّوْا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ ^(٣) وهذا استدلال مغلوط وغير وجيه ولا مقبول . عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿ وَكَانُوا شِيعًا ﴾ قال : إن اليهود والنصارى اختلفوا قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم فتفرقوا فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم أنزل عليه ذلك . وقال أبو امامة في (وكانوا شيعاً) هم الخوارج . وقال مجاهد وقتادة والضحاك والسدي نزلت في اليهود والنصارى .

قال ابن كثير رحمه الله الجميع : والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفاً له ، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق لقطهره على الدين كله وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق ، فمن اختلف فيه (وكانوا شيعاً) كأهل الملل والنحل والاهواء والضلالات فإن الله تعالى قد برأ رسوله صلى الله عليه وسلم ما هم فيه ^(٤) .

وعليه يتبين من كلام العلماء والمفسرين أن الآية لا علاقة لها بالاختلاف في الفروع وأن ذلك ليس بسبب للاضراب عن تصانيف وكتابات الدعاة السابقين لنا بحجة تقليدهم أو أخذهم بشبه أو هن من خيط العنكبوت .

(١) رواه البخارى ١٣٩/٨ ومسلم ٩٧٥/٢ وابن ماجه ٣٩/١ واحمد في مسنده ٢/٢٤٧ ، ٢٥٨ ، ٣١٣ ، ٤٢٨

(٢) فيض القدير بشرح الجامع الصغير ٢١١/١

(٣) الانعام ١٥٩

(٤) تفسير القرآن العظيم .

احترام السلف لفقه الأجيال السابقة وتنقلهم في مذاهبهم :

الانتقال بالكلية من مذهب لمذهب آخر يجوز ولا حرج فيه ، لأن الأربعة نجوم الظلام يهتدي بفقههم ويسترشد بعلمهم وسمتهم وهم سلف هذه الأمة بلا منازع ، وقد عبر العلماء على اجلالهم واحترام فقههم لانهم أقوم وأسبق واتباعهم اسلم ، وبهذا السرد لاسماء من تنقل في مذاهبهم يظهر الارتباط بين الأجيال والالتحام بين دعاة الاسلام على مر تاريخه الناصع .

قال المناوي رحمه الله تعالى :

منهم عبدالعزيز بن عمران كان مالكياً فلما قدم الامام الشافعي رحمه الله تعالى مصر تفقه عليه . وابو ثور من مذهب الحنفية إلى مذهب الشافعية . وابن عبدالحكم من مذهب مالك إلى مذهب الشافعي ثم عاد إلى مذهب مالك . وابو جعفر بن نصر من الحنبلي الى الشافعي . والطحاوي من الشافعي الى مذهب أبي حنيفة . والامام السمعاني من الحنفي الى الشافعي .

والخطيب البغدادي والآمدي وابن برهان كلهم من الحنبلي إلى الشافعي . وابن الدهان من الحنبلي للحنفي ثم تحول شافعيّاً . وابن دقيق العيد من مذهب مالك الى مذهب الشافعي . وابو حيان من مذهب داود الظاهر الى الشافعي .

قال المناوي وإنما أطلنا وخرجنا عن جادة الكتاب لشدة الحاجة الى ذلك^(١) ، قلت ليته رحمه الله زاد وأكثر وأطال في النقل والافادة في هذه المسألة التي ظهرت حاجتها في ايامه وكانت من المهمات اما في أيامنا فقد صارت من المهمات المدلهمت وخطط لها لنشر السيئات والهئات عن السلف واشاعتها ، وكنتم حسنات الائمة وجميلهم بقصد قطع الصلة بين جيلي الدعوة .

ان القول عن المشتغلين بالدعوة انهم يقلدون المذاهب الاربعة ، خاصة الجيل

(١) فيض القدير الجامع الصغير ٢١١/١

السابق لنا الذين كونوا فكراً اعتني بجوانب اعداد الدعاة الاعداد المتكامل وحدثوا في المكتبة الاسلامية أمراً بالغ الاهمية ووضعوا لبنة كانت الامة الاسلامية تتطلع لسد النقص بها في قواعد وأصول دعوتهم . إن ذلك لسهم جد خطير في اصابة كل مشروعات الدعوة بالخبية والاخفاق .

ماذا يقول المشتغلون بالدعوة والارشاد والتوجيه والاصلاح في كل شأن من شئون الدعوة واسسها وأساليها ، اذا أهدر بعض أهلينا من الدعاة غفر الله لنا وهم فكر الجيل السابق والطعن ، وفكر الجيل السابق لنا هو الفذ الذي ينفرد بالتأثير والتوجيه ولا يشاركه في ذلك منهج مرسوم ولا كتاب مقرر ولا جو ولا مدارس ولا توجيه :

ومن هنا كان لا بد من التنبيه على ان نتصر على الهوى والتسلط وان لا نفسد ان لم نصلح . وهكذا كان نهج الامة الاسلامية في مسألة التقليد والاختلاف الفقهي من غير أن يعيب بعضهم على بعض ويتقللون من مذهب لآخر من غير ان ينتقصوا من الأول شيئاً ولا يعيرون اتباعه ولا يعملون على نقلهم منه الى غيره ، وقد يعودون اليه ثانية ، وهم في كل ذلك يسيرون على أسس وقواعد لا تقبل الترخص والعيب ، وقد وضعوا للمتقل من مذهب لآخر بالكلية ضوابط وقواعد ليس هذا مكان بسطها .

ولو قدر انهم انشغلوا بالاختلاف الفقهي وجعلوه همهم وديدنهم وتهاشوا عليه وهجر بعضهم بعضاً لاثّر ذلك على سير دعوتهم وحركة التصنيف والجهاد ولتمزق صفهم ، ولسخر كل مقلد من امام خصمه ورماه بكل شين وقبيح .

لا بد لهذه الدعوة العظيمة الشاملة من دعاة اقوياء يتناسبون مع عظمتها وشمولها قادرين على اىصال اشعة ضيائها الى ضمائر الناس وعقولهم وكل منهم يجب أن يترفع ويربأ بنفسه أن يرتع مع الهمل في اتهام مقاصد المسلمين ونواياهم فينتج من ذلك السخرية والتحرش باخوانه والتعريض بهم واستعداد الغير عليهم ، ويعتذر لنفسه بأنهم مقلدون تارة وتارة بأنهم متشددون وأخرى بأنهم يتبعون الرخص ويوجه

اليهم كل ما خطر بقلبه أو سمعه بطريق واحد مهلهل ، تاركاً العدو الحقيقي الذي يكيد للدعوة ليلاً ونهاراً ويخطط لتصفية جنس المسلمين من الارض سراً وجهاراً .

العامل الثاني :

احتواء اليمين السياسي لبعض الاسلاميين الغافلين وخطره

من الامور التي تحول بين التحام الجيلين والمزقة لوحدة الامة همسات الشيطان والتوهين الصادرة ف شكل صور ونصائح وتحذيرات من بعض المصروعين فكرياً المحتوين سياسياً ، الذين باتوا في حظيرة اليمين السياسي فاحتضنهم واصبحوا اداة تبرير لتناقضاته وطوع بدوره نشاطهم وحركتهم نحو مراميه ومقاصده ، فأدوا دوره في قطع صلة النبت الاسلامي بسلفه الصالح أو كادوا أن يقطعوا حبل الصلة بين الجيلين « الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الارض اولئك هم الخاسرون » . وهذا النمط من متغفلي الدعاة بين امتطاهم الطاغوت متقصداً بهم النبت الاسلامي والصحة الاسلامية يعد ويعتبر من أفتك الاسلحة واشدها لما عندهم من التلون وأساليب التوهين والتضعيف للشباب المسلم ، والتشويش على فكر السابقين وقد اصابهم ذلك لقصر همتهم على مواكبة سير الصحة الاسلامية المباركة المنطلقة بقوة وحماس وترشيد ، ففترت عزائمهم عن مكابدة المشاق ، وآثروا برد العافية عل لفح الجهاد فعمدوا على تضليل الجيل الصاعد سواءً بالتشكيك في افراد الجيل السابق في عقائدهم وفقههم وسلوكهم أو في جهادهم وسيرهم ، وهم في كل ذلك يتمسحون بالاسلام ، وقد حذرنا القرآن الكريم من هذا الصنف اشد التحذير قال تعالى وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ (١) وتعذيب الطغاة وسياطهم وسجونهم ونارهم ما هي الا نار بني آدم وفي حديث ابي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « نار بني آدم التي توقدونها جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم قالوا يارسول

(١) التوبة ٨١ .

الله إن كانت لكافية . فقال صلى الله عليه وسلم : « فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً »^(٢) وفي مسند أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم وضربت في البحر مرتين ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد »^(٣) .

إن نظرة هؤلاء المعوقين للدعوة تكون ساخرة دائماً ومستهترة ، ويظنون أن هذه الصحوة الاسلامية عمل صبياني وان القائمين عليها أطفال صغار لا علم لهم ولا دراية ولا فقه وأنهم ليسوا من الطلبة الشرعيين وان شيوخهم ومن يتلمذون على كتبهم لا دراية لهم بالمقدمات وعلم الكلام والنحو واللغة وليس لهم آلات العلم الشرعي وهكذا يعوقون عن الاستفادة من الجليل السابق ، فدنسوا علمهم بظلمة الذنوب وعاشوا دنياهم مظلمة سوداء وسيبقون في الظلمة يوم يسعى أهل العلم بنورهم « نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »^(٤) .

الجمع بين النقيضين محال :

من ادعى انه جمع بين حب الدنيا وحب خالقها فقد كذب ، وجمع حب الطاغوت وحب الدعاة المخلصين في اناء واحد فقد ابعد النجعة .

اللهم انا نبرأ اليك من مقام الكاذبين على اهل الدعوة المعرضين الغافلين عن حال المسلمين الذين لا يبالون بحالهم وتمزقهم وما وقع عليهم من تذبيح وتشريد ، وفي آن واحد لا يفرحون ويسرون بعودة شبابهم إلى الاسلام ورفع رايتهم بل تعدوا إلى أكثر من ذلك فتقصدهم وكانوا لسان حال الطاغوت يتقدمونه بالاضلال ويتبعهم بالسحق والتدمير .

قال الامام الشافعي رحمه الله تعالى : من صدق نجا ، ومن اشفق على دينه

(٢ ، ٣) مسند أحمد ٢/ ٤٦٧ والموطأ كتاب جهنم الحديث الاول .

(٤) التحريم ٨

سلم من الردى ، ومن زهد في الدنيا قرت عيناه مما يراه من ثواب الله تعالى غدا ، افلا أزيدك ؟ قال تلميذه نعم . قال من كان فيه ثلاث خصال فقد استكمل الايمان ، من أمر بالمعروف واثم ، ونهى عن المنكر وانتهى ، وحافظ على حدود الله تعالى ، الا ازيدك ؟ قلت بلى . فقال : كن عن الدنيا زاهداً وفي الآخرة راغباً واصدق الله تعالى في جميع امورك تنج مع الناجين .

وكل واحد من الائمة الأربعة كان عابداً وزهداً وعالمًا بعلوم الآخرة وفقهياً في مصالح الخلق في الدنيا ، ومريداً بفقهه وجه الله تعالى ، فهذه خمس خصال : تنكبها فقهاء البلاط والسلطين في عصرنا ، من جعلتها واتخذوا خصلة واحدة هي التشمير والمبالغة في تفاريع الفقه لاجراج الفتاوي المريضة التي تواكب ما يريد الطاغوت وادعوا بذلك مشابهة الائمة وهيئات ان تقاس الملائكة بالحدادين .
ألم تر ان السيف ينقص قدره

اذا قيل ان السيف أمضى من العَصَا

ومن مسلمات العقلاء أن العلم خير من المال ، العلم يحرسك وانت تحرس المال ، العلم حاكم والمال محكوم عليه ، المال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو بالانفاق .

ما الفخر إلا لأهل العلم انهم
على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه
والجاهلون لاهل العلم اعداء
ففز بعلم تعش حياً به ابد
الناس موق واهل العلم احياء

وتظهر خطورة احتواء اليمين السياسي لبعض الاسلاميين الغافلين في أمور كثيرة الصقها ببحثنا هذا سماع بعض النبت الاسلامي منهم والجلوس اليهم لمسحة الدين التي عليهم فينقلون منهم سموهم « وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمُ وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالظَّالِمِينَ »

بعد قوله «لَوُخِّرْجُوفُكُمْ مَا زَادُوكُمُ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وَضْعُوكُمْ»^(١) قال ابن كثير رحمه الله تعالى : وفيكم سماعون لهم ومستحسنون لحديثهم وكلامهم يستنصحوهم وإن كانوا لا يعملون حالهم فيؤدي إلى وقوع شر بين المؤمنين^(٢)

وقد سطر السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين من المواقف القوية في مسألة الاحتواء ما لا نطمع في المزيد عليها فنقع في التنطع والغلو ولا نقص منه فنقع في احضان اليمين السياسي فتتخطط .

روى ان أبا جعفر المنصور منع مالكا من رواية حديث طلاق المكره ثم دس عليه من يسأله ، فروى مالك على الملأ من الناس « ليس على مستكره طلاق »^(٣) ، فضربه بالسياط^(٤) . ومع ذلك لم يترك مالك رواية الحديث وكان رحمه الله يقول : ما كان رجل صادقاً في حديثه ولا يكذب إلا متعه الله بعقله ولم يصبه مع الكبر آفة ولا خرف .

وروى أن المهدي أمير المؤمنين سأله فقال له : هل لك من دار ؟ فقال لا ؟ فأعطاه ثلاثة آلاف دينار وقال : اشتري بها داراً فأخذها ولم ينفقها ، فلما أراد الرشيد الشخصوص قال لمالك رحمه الله ينبغي أن تخرج معنا فإني عزمت على أن أحمل الناس على الموطأ كما حمل عثمان رضي الله عنه الناس على القرآن ، فقال له : أما حمل الناس على الموطأ فليس فيه سبيل ، لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم افترقوا بعده في الامصار فحدثوا فعند كل أهل مصر علم ، وأما الخروج معك فلا سبيل اليه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون »^(٥) وقال عليه السلام « المدينة تنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد »^(٦) وهذه دنائركم كما هي إن شئتم فخذوها وإن شئتم فدعوها .

(١) التوبة ٤٧ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢٦٢/٢ .

(٣) (٤ ، ٣) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة اعلام مذهب مالك ٢٢٨/١ .

(٥) متفق عليه من حديث سفيان بن ابي زهير .

(٦) البخاري ١٨١/٥ التفسير والترمذي التفسير سورة المائدة ومسنند أحمد ١٨٤/٥ و ١٨٧ و ١٨٨ .

يعني بذلك انك تكلفني لما اصطنعه إلى أبوك . هكذا كان حال العلماء في الجانب الخطر على الدعوة واهل الاسلام .

وقد كان سلف الأمة يدخلون على الملوك والولاة والسلاطين لوعظهم وارشادهم ، أو زيارتهم ان بعثوا اليه ، وقد يأخذون الجوائز منهم ، لكن لا على حساب الدين والدعوة والعمالة والتبرير .

قال القاضي عياض رحمه الله^(١) سئل عيسى بن عمر المدني ، أكان مالك يغش الامراء ؟ قال لا ، إلا أن يبعثوا اليه فيأتيهم ، وقيل لمالك تدخل على السلاطين وهم يظلمون ويحجرون ؟ فقال : يرحمك الله واين المتكلم بالحق . وقال مالك : حق على كل مسلم أو رجل فعل الله في صدره شيئاً من العلم والفقه ان يدخل إلى ذي سلطان يأمره بالخير وينهاه عن الشر ويعظه حتى يتبين دخول العالم على غيره ، لأن العالم انما يدخل على السلطان يأمره بالخير وينهاه عن الشر فإذا كان فهو الفضل الذي لا بعده فضل .

قال عتيق بن يعقوب : كان مالك اذا دخل على الوالي وعظه وحضه على مصالح المسلمين ، ولقد دخل يوماً على هارون الرشيد فحثه على مصالح المسلمين ، قال له : لقد بلغني ان عمر بن الخطاب كان في فضله وقدمه ينفع لهم عام الرمادة النار تحت القدور يخرج الدخان من لحيته وقد رضي الناس منكم بدون هذا .

ودخل عليه مرة وبين يديه شطرنج منصوب وهو ينظر فيه فوقف مالك ولم يجلس وقال احق هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا . قال : فماذا بعد الحق إلا الضلال ، فرفع هارون رجله وقال لا ينصب بين يدي بعد .

وقال لبعض الولاة يوماً : تفقد أمور الرعية فانك مسؤول عنهم ، فإن عمر بن الخطاب قال : والذي نفسي بيده لو هلك حمل بشاطئ الفرات ضياعاً لظننت أن الله يسألني عنه يوم القيامة .

(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة اعلام مذهب مالك ٢٠٨/١ .

وقال الحنيني : سمعت مالكاً يحلف بالله ما دخلت على أحد منهم يعني السلاطين الا اذهب الله هيبته من قلبي حتى أقول له الحق . قال خلف بن عمر : قلت لمالك الناس يكثرون انك تأتي الامراء فقال : إن ذلك بالحمل من نفسي وذلك أنه ربما استشير من لا ينبغي أن يستشار ولولا أني آتيهم ما رأيت للنبي صلى الله عليه وسلم في هذه المدينة سنة معمولاً بها .

وقال ابن وهب وابن عبدالحكم قال مالك دخلت على ابي جعفر فرأيت غير واحد من بني هاشم يقبل يده المرتين والثلاث فرزقني الله العافية من ذلك فلم أفعل .

وبهذه الروايات عن مالك يتبين العارف المحتوي سياسياً والعالم الرباني الواعظ المفيد ، وهكذا كان احمد وابو حنيفة والشافعي في هذا الجانب رضي الله عنهم اجمعين ومازال العلماء من بعدهم يحبون أهل العدل والامانة من الولاة ويدعون لهم ولا يدعون عليهم ولا ينزعون يداً من طاعة مالم يأمرؤا بمعصية ، ويبغضون أهل الجور والخيانة .

العامل الثالث

حب الثناء من الناس والحرص على الظهور

من المعلوم من تاريخ الحضارات والامم السابقة والثورات ان ظهور الزعامات والقيادات لا يقوم الا على انقراض فكر سابق ينسج عليه ويصب عليه جام الغضب وكل اللوم وأنه كان من أسباب البلاء ، وفي نظر واعتقاد الزعيم الجديد الغاصب انه لا يستتب له الأمر ويطمئن لزعامته وقيادته إلا بنبذ الوضع السابق له وتقبيحه للناس ولئن تولاه حتى لا يذكروا ولا يحنوا إلى عودته ويقطع صلته بهم تماماً ويغير ويبدل وان كلفه ذلك ما كلفه في سبيل بقاءه على الزعامة والسلطة .

فيتتبع عورات الفكر السابق له وينبش عيوبه ويفرح بابرار تلك العورات والعيوب وقد أخذت نشوة الزعامة والقيادة وحب الرياسة بعض اخواننا من الدعاة واهلينا من شبان الفكر والدعوة ، لكنهم للأسف الشديد تنكبوا الطريق الى ذلك

فعملوا على قطع الصلة بين جيلي الدعوة ، وساروا على قواعد التتار واهل الثورات والانتفاضات العالمية ظانين أن هدم الثقة بالاجيال المتقدمة ونبش هنات فكرهم ، أن ذلك يمهد لهم قيام وانتصاب القيادة والزعامة وامامة جيل الدعوة الصاعد والصحة المتفتحة .

وغفلوا عن أن الذي حصل لبعض العارفين من سادات جيل الدعوة السابق من رياسة وامامة وزعامة انما حصل لهم ببذل الدماء والمهج رخيصة في سبيل دعوتهم وسعت اليهم الزعامة فرفضوها ولما لم تجد غيرهم ولا يصلح غيرهم لها تلك الساعة تقلدوها واعانهم المولى عز وجل عليها ، لقد ضيعوا تجارتهم واعمالهم واهملوا مصالحهم في سبيل هذه الدعوة حتى قال فيهم ذووهم وأهلوه وأقاربهم ما قاله أهل صالح في صالح « قَالُوا يَصِلِحْ قَدْ كُنْتَ فَيْتًا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ^(١) » أي كنا نرجو أن تكون تاجراً كبيراً أو صاحب صناعة فأفقدتنا الأمل فيك . هكذا كان جيل الدعوة السابق لنا شغلوا أنفسهم بالله وعملوا لله وبالله وضيعوا تجارتهم واهدروا مصالحهم وطردوا بسبب الدعوة من وظائفهم وهُجروا من بلدانهم وأوطانهم واضطربت أحوالهم حتى أفقدوا أهليهم وذوهم الأمل في المطامع الدنيوية ان تأتي من طريقهم . وما حرصوا يوماً واحداً على الشهرة وتجميع الوسط المثقف تحت ركبهم . لكن الله تعالى عليهم بنياتهم فأحبهم فوضع لهم القبول في الأرض فأحبهم الناس فجلسوا اليهم وصاروا جنوداً لهذه الدعوة ، هكذا الطريق ، ومن كان مع الله كان الله معه .

حب الثناء من الناس يعمي ويصم

روى في الامثال وساقه بعض الرواة من الحديث المرفوع فوهم ، ولفظه « حب الثناء من الناس يعمي ويصم » ^(٢) وهو في سند الفردوس عن ابن عباس وعلمته - حميد بن عبد الرحمن - مجهول .

(١) سورة هود ٦٢ .

(٢) فيض القدير ٣/ ٣٦٩ وعند أبي داود واحمد بلفظ (حبك الشيء) وفيه قال الحافظ تبعاً للعراقي : ويكفي ناسكوت أبي داود عليه فليس بموضوع فهو حسن . وقال القارئ الحديث أما صحيح لذاته أو لغيره مرتقي من درجة الحسن وانظر كشف الخفاء ١/ ٣٤٣ .

انها لظاهرة جِدَّ غريبة من أفراد امة مستهدفة من عدو لدود شرس خائن يناصبها العداة عقدياً واقتصادياً واجتماعياً ويخطط لها ليل نهار . وهي في نوم وحب للذات والثناء الى درجة العمى فلا يهتمها إلا الزعامة والرياسة والتبسط بطريق متلون مشوه وباسلوب يؤدي الى اهدار تجارب الأجيال السابقة في حقل الدعوة أو يشوش على سمعة بعض أفراد الجيل السابق بالاغلوطات ، وفي سند احمد والسنن لابي داود بسند حسن عن معاوية رضي الله عنه قال :

نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأغلوطات ^(١) جمع أغلوطة كأعجوبه ، أي ما يغالط به العالم من المسائل المشككة لتشويش فكره ويستنهض المسئول واظهار فضل السائل مع عدم نفعها في الدين .

قال الازواعي رحمه الله : « اذا اراد الله ان يحرم عبده بركة العلم ألقى على لسانه المغاليط فلقد رأيتهم أقل الناس علماً ، وكان الصحابة وأفاضلهم اذا سئلوا عن الشيء ، قالوا وقع ؟ فإن قيل وقع افتوا وإلا قالوا دع حتى يقع .

وقد انقسم الناس في هذا الباب فمن ذاهب الى كراهة المسائل مطلقاً وسد بابها حتى قل فهمه وعلمه بحدود ما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ، فصار حامل فقه غير فقيه ، ومنهم من توسع في البحث عما لم يقع وأكثر الخصومة والجدال حتى تولد منه الاهواء والبغضاء ويقترن ذلك بنية الغلول والمباهاة ، وهذا الذي ذمه العلماء ودلت السنة الشريفة على قبحه . وأما أهل الحديث الفقهاء العلماء العارفون فقد وجهوا همهم إلى البحث عن معاني الكتاب والسنة وكلام السلف والزهد والدقائق والرفائق ونحوها مما فيه صفاء القلوب والاخلاص لعلام الغيوب وهذا لا شك انه محمود ومطلوب .

إن الحرص على الظهور على اكتاف الدعوة وفوق جماجم الجيل السابق بنسف فكره واهدار ذلك التراث لاننا أحبينا الزعامة والرياسة واقع ملموس وموجود وانه

(١) رواه احمد وابوداود وحسنه السيوطي في الجامع الصغير ٣/١٣٢٨ وفيه عبدالله بن سعد قال ابو حاتم مجهول ، قال ابن القطان : صدق ابو حاتم لو لم يقل لقلناه وذكره الساجي في ضعفاء الشام .

عائق كبير جداً في سبيل توحيد فكر الأمة ولم تفرق الجيل الصاعد إلى بعضهم البعض ولا ريب ان من أحب شيئاً أعماه عن الحقائق وعن فضل الماضين ومجدهم .

وقال بعضهم :

وكذبت طرفي فيك والطرف صادق
واسمعت اذني فيك ما ليس تسمع

وقال أيضا :

أصمني الحب إلا عن تسارره
فمن رأى حب حب يورث الصمما
وكفني الحب إلا عن رعايته
والحب يعمى وفيه القتل ان كتما

وفي حديث مسلم الطويل « ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن ، فأق به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ، قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت القرآن فيك . قال كذبت ولكنك تعلمت ليقال هو عالم ، وقرأت ليقال قارئ ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى القي في النار »^(١).

وفي حديث . . . « من سَمِعَ سَمِعَ الله به ومن يرائي يرائي الله به »^(٢) فمن اراد الزعامة والرياسة على حساب جيل الدعوة الصاعد فليسلك طريقهما السليم الصحيح بالقيام عليهم وبخدمتهم وارشادهم وتعليمهم والبذل على طلبه العلم واخراج الضال منهم من الضلال الى النور ومساعدته على اكتساب الفضائل واصلاحه عقيدة وسلوكاً ومواظبة على فعل الطاعات . لا بالكيد للجيل السابق وتعليم الشبيبة والا غيلمة من الجيل الصاعد الجدل العقيم وتتبع هنات واغلاط السابقين بقصد ارشاد الناس عن اتباع ما صح وسلم من فكرهم وتجاربهم ، فهذا عمل غير صالح ولا اخلاص فيه إلا لأن يراه الناس ، وصاحبه لا شك آثم ومذنب

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب الامارة حديث ١٥٢ واحد ٢٢٢/٢ و ٩٦/٣ .

(٢) مسلم ٢٢٨٩/٤ باب من اشرك في عمله غير الله من كتاب الزهد .

ويجب عليه أن يستغفر من هذه المعصية ولا يسترسل بحجة أنه يريد الإصلاح ، قال تعالى (وَبَدَأْهُمْ مِنْ آلِهِمَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ)^(١) قيل في معنى هذه الآية الكريمة ، كانوا عملوا اعمالاً كانوا يرونها في الدنيا حسنات بدت لهم يوم القيامة سيئات ، وكان بعض السلف الصالح اذا قرأ هذه الآية يقول : ويل لاهل الرياء .

وقال قتادة : « اذا رأى العبد ، يقول الله تعالى انظروا إلى عبدي كيف يستهزئ بي » . وعلامات المرائي كما قال علي رضي الله عنه : « يكسل اذا كان وحده ، ينشط اذا كان في الناس ويزيد في العمل اذا اثنى عليه وينقص اذا ذم به » .

شكا أحدهم العارف بالله ، كثرة خواطر الشيطان ، فقال العارف : طلق بنته يهجر زيارتك وهي الدنيا ، يريد أن يقطع رحمه لاجلك ؟ قال هو يأتي لمن لا دنيا عنده . قال : إن لم تكن عنده فهو خاطب لها ، ومن خطب بنت رجل فتح باب مودته وان لم يدخل بها .

قد يكون اشتغال المفتون بالزعامة اشتغال بما يسمى علماً وليس بعلم :

العلم الحقيقي ما يعرف به الانسان ربه جل جلاله وماله من صفات الجلال والكمال وتمام التنزيه ويعرف نفسه وأنه خلق من العدم « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا »^(٢) ولا اقيح من العدم ثم تتدرج في اطوار أحقر واذل « قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ^(٣) مِنْ أَتَى شَيْءٍ خَلَقَهُ^(١٨) مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ^(١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسِّرُهُ^(٢٠) »^(٣) وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر وحب الرياسة وأما ما وراء ذلك من علم الحساب والشعر والنحو وطرق المناظرة والمجادلة ونحوها من العلوم التجريبية هذه إن تجرد لها صاحبها لدراستها لذاتها من غير نية صالحة تجرداً سد به باب العبودية والربوبية وطريق العبادة ، وامتلاً بعلوم الصناعات ، فقد امتلاً كبيراً

(١) الزمر ٤٧ .

(٢) الانسان ١ .

(٣) عبس ١٧ ، ١٨ ، ١٩ .

وانتفخ بالنفاق والجبروت ، فإن مَسَحَ ذلك بشيء من ظواهر النصوص وتكلف حفظ شيء من اقوال العلماء وأبواب العلم وبدأ يخوض بعلمه في الدين ويلفق ويرقع ليجمع الزعامة والقيادة الى علم كسبه ويصرف بذلك وجوه الناس وابناء الاسلام اليه بحجة انه صاحب علم وتوسعة وشهادات كبرى في الطب والهندسة وما يميل اليه الشباب من طموحهم ، ورتب لهم لياهي العلماء ، كان عمله معولاً هداماً وخطراً عظيماً على قدر ما في صدره من بغض أو محبة للجيل السابق في الدعوة الى الله وهذا ما وقع فيه كثير ممن يدعي انه حامل للواء الدعوة إلى الله وهو في واقعه نقد وهدم لفكر الأجيال السابقة وسلف الأمة وفي حديث حذيفة عند ابن ماجة « لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء أو لتجاروا به السفهاء أو لتصرفوا وجوه الناس اليكم ، فمن فعل ذلك فهو في النار » وفي رواية (ولا تخيروا به المجالس فمن فعل ذلك فالنار النار)^(١).

ومن أسباب ذلك أيضا ان يخوض العبد في العلم وهو خبيث الدخلة رديء النفس سيء الاخلاق ، فهذا الاولى له أن يشتغل بتهذيب نفسه وتركية قلبه بأنواع المجاهدات من صوم وذكر وإلا بقي خبيث النفس سيء الأخلاق والجوهر . قال وهب بن منبه : « العلم كالغيث ينزل من السماء حلواً صافياً فتشربه الاشجار بعروقها فتحوله على قدر طعومها فيزداد المرارة والحلو حلاوة . فكذلك العلم تحفظه الرجال فتحوله على قدر همها واهوائها فيزيد المتكبر كبراً والمتواضع تواضعاً .

فمن كان همه الزعامة والرياسة والقيادة ورأى أن طريق الانتساب للعلم واهله يمكنه من غرضه وهو جاهل أحق خبيث النفس فإن تيسر له ان حفظ شيئاً من ابواب العلم وجد ما يتصدر به ويتزعم به .

والجاهل الخائف من ربه ان تعلم العلم وحسن قصده ازداد خوفاً وقرباً من الله وعلم أن المهمة قد تأكدت عليه فيذل الله ويتواضع وهذا ابعد ما يكون من حب

(١) رواه ابن ماجة ٩٣/١ قال الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي رحمه الله : « في الزوائد اسناده ثقات ، رواه ابن حبان في صحيحه . والحاكم مرفوعاً وموقوفاً .

الزعامة والرياسة التي كانت ومازالت وستدوم عقبة امام التحام الجيلين السابق بفكره واللاحق بتطلعاته .

قال عمر رضي الله عنه : (لا تكونوا جبابرة العلماء فلا يفي علمكم بجهلكم) ولما إستأذن تميم الداري عمر في القصّ أبى أن يأذن له وقال إنه الذبح . واستأذن عمر رجلاً كان امام قومه : أنه إن سلم من صلاتهم ذكّرهم فقال عمر : إني أخاف أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا .

وقد حرص السلف الصالح على صيانة نفوسهم من أن تدنس بمثل هذه القبائح ، روى أن حذيفة صلى بقوم ، فلما سلم من صلاته قال : لتلتسنّ اماماً غيري أو لتصلن وحدانا فإني رأيت في نفسي إنه ليس في قومي أفضل مني .

العامل الرابع احتواء اليهودية الماكرة والصليبية العالمية للوسط الثقافي والزعامات الوطنية :

يقول الدكتور محمد البهي في كتابه الاسلام ومواجهة المذاهب الهدامة^(١) : « لم كانت نوادي الروتاري في المجتمعات الاسلامية ؟ ولم كانت الدعوة اليها في هذه المجتمعات قصداً إلى احتواء أكبر عدد من المثقفين الوطنيين وأصحاب النفوذ السياسي ورجال القانون والفكر والصحافة .

أليس هدف نوادي الروتاري اضعاف « حبل الله » بين المسلمين وتمزيقهم وتفريقهم ، ليظلوا اتباعاً في عالمية يسود فيها القوي لمصلحته ؟ وأليس الصليبية الدولية وراء هذه النوادي والعمل على احتواء الصفوف المتميزة في المجتمعات الاسلامية ليشرخوا بـ « روح العالمية » بين مواطنيهم ، وليضعفوا بالتالي روح الوحدة الاسلامية والتماسك في علاقة بعضهم ببعض . أ. هـ المقصود من كلامه .

(١) ص ٦ الاسلام ومواجهة المذاهب الهدامة .

نعم أن محاولات التقسيم والتفريق بين افراد الصحوة الاسلامية وافتعال الغل بينهم واشعال نار الفتنة ونبش الاحقاد والضغائن الجاهلية هذا العمل الخطير البالغ الاذى لانشك ان وراءه تخطيط من أجنحة المكر المتعددة، وقد ظهرت ثمار هذا التخطيط الرهيب في التشكيك في القيادات الفكرية للجماعات العاملة في حقل الدعوة والتي اصبحت عالمية تواجه الكفر والطاغوت في كل مكان وزمان .

ولم تفلح العلمانية قديماً في اضعاف الكنيسة إلا بعد ان قطعت حبل الصلة بين جيليتها وشككت في رجال الكنيسة والدين وفي اصولهم وفكرهم، عندها خارت الكنيسة على ركبتها، والعاقل من اتعظ بغيره والاحق من اتعظ بنفسه .

إن احساس بعض اخواننا بتسرب هذه العوامل الخطيرة إلى حقل العمل الاسلامي لقطع الصلة بين الجيلين، قد يكون احساسهم بذلك بطيئاً وضعيفاً أو قد يكون مفقوداً بالكلية، ومن ثم قد ينكرون ويعترضون، الا انه الواقع المرير فأرجو أن نعمل جادين على مواجهة النقص لاكماله، والمذاهب الهدامة والخطط بكافة صورها لكي يسلم لنا هذا الجيل المبارك وتفلح وتثمر هذه الصحوة الخيرية المشرقة .
والله اسأل التوفيق والسداد